الشكـــل الخارجى للموشحة

- ٦ -

المقطوعة الأخيرة من الموشحة

تكتسب هذه المقطوعة اهمية كبرى فى فهم آلية بناء الموشحات وتقنية «شعريتها» وشعبية نشأتهـــا ، وموسيقية عروضها ، وعلاقة كـــل ذلك بالرقص بين الشارع والقصر ، ثم بين الموشح والزجل . ان تاريخ التوشيح مثله مثل تاريخ الاندلس كامن فى هذه المقطوعة ، بل وتاريخ ميلاد الغنائية والموسيقى الأوربية .

تتكون المقطوعة الأخيرة مثلها مثل باقى المقطوعات من بيت ويليه قفل . البيت لا يحمل فيما وصلنـــا من مصطلحات اسما خاصا سوى لفظـــة البيت الاخير . ونحن نقترح أن يطلق عليه مصطلح «صدر الخرجة» لأسباب تنبثق مما أشرنا اليه فى حديثنا عن زرياب فى الفصل الثـــانى من هذا الكتـــاب ، حول الأصل الزراعى الشعبى للمصطلح الذى يحمله القفل الأخير ، وهو «الخرجة» .

وهذا القفل الأخير المسمى الخرجة – كما نفهم من الاخبار القليلة النـــادرة التى تركها لنا الاندلسيون حول نشأة الموشحة – كان يسمى فى البداية «المركز» ، وأيضا يمكن أن يكون قد حمل اسم «المذهب» (*) .

وخير من يحدثنا عن هذا القفل الأخير الذى استقرت له بقوة تسميته بالخرجة ابن سنـــاء الملك ، فهو معجب به اعجابـــا رومانسيا شاركـــه فيه د. عبد العزيز الأهوانى فى كتابه الممتاز «الزجل فى الأندلس» . يقول ابن سناء الملك : «والخرجة عبارة عن القفـــل الاخير من الموشح ، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة الى شاعر هزلى بغدادى) من قبل السخف ، قزمـــانية (نسبة الى امـــام الزجالين ابن قزمان) من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من الفاظ العامة ولغات الداصة ، فان كانت معربة الألفاظ ، منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيـــات والاقفال خرج الموشح من أن يكون موشحا اللهم الا أن كـــان موشح مدح وذكر الممدوح فى الخرجة ، فانه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بقى :

انما يحيى – سليل الكرام – واحد الدنيا – ومعنى الأنـــام

(*) راجع رواية ابن خلدون عن نشأة الموشحات (هذا البحث ص ٢٠٦) .

وقد تكون الخرجة معربـــة ، وان لم يكن فيها اسم الممـدوح ، ولكن بشرط أن تكون الفاظها غزلة جدا ، هزازة سحارة خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة ، وهذا معجز معوز ، وما يوجد منه فى الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة كقول ابن بقى:

ليـل طويل – وما معين – يا قلب بعض الناس – اما تلين

فمن قدر أن يقول هذا فليعرب ، ومن لم يقدر فليغرب» (١) .

ومن الواضح أن ابن سنـاء الملك لم يبـالغ فى شىء ، سوى عـدم تنبهه أن الخرجات المعربة التى تتـوفر فيها شروطه اكـثر عددا مما قـدر ، وأنها ترتبط – فيما يبدو – بمرحلة ازدهر فيها الزجـل ، فاراد الوشاحون الاستقـلال عنه ومنافسته بالاتيان بلغة معربة فى طرافة وظرف عامية الزجل ، بل ان الاقفـال (ولا سيما المطالع) نافست الخرجة فى هذه الشروط . ان هذه المرحلة الممتدة من منتصف القرن الخامس حتى منتصف السادس ، هى بحق فترة وصول الموشحات الى ذروة غنائيتها وفنيتها ، كى تقع بعد ذلك فى العقم والجمود وأنظمة المكفرات .

كما أن لنا ملاحظة أخرى ، وهى أن بعض الخرجات المدحيـة ليست معربة ، كما أن الخرجات المعربة نحس أنها ليست الا أجزاء من أمداح عامية فى قصص البطولة الشعبى الذى كان – بالضرورة – سائدا فى الاندلس ، وقد تم تفصيحها واقحام اسم الممدوح بهـا بدلا من اسم البطل الملحمى فى القصة الشعبية (٢) . ولهذا فلا عجب أن تثير فى نفس ابن سناء الملك كل هذ الاعجاب ، فهذا أبو بكر بن باجة صاحب التـلاحين المشهورة يلـقى على احدى قينات «ابن تيفـلويت» والى المرابطين على شرق الاندلس موشحة خرجتها :

عـقـد الله رايـة الـنصر لأميـر العـلا ابى بـكر

---

(١) دار الطراز ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) عشق اهل الاندلس البطولة فى الواقع الحى . قال ابن سعيد : «الضابط فيما يقال فى شان اهل الاندلس فى السلطان ، انهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان ، او جوادا يبرع الأجواد ، تهافتوا فى نصرته ، ونصبوه ملكا .. وبعد أن يكون الملك فى مملكة قد تووزثت وتداولت ، يكون فى تلك المملكة قـائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع فى العدو ، وظهر منـه كرم نفس للاجنـاد ... قدموه ملكـا .. وما زالوا فى جهـاد وتلاف انفس حتى يظفر صاحبهم .. الخ» (شكيب ارسلان ، خلاصة تاريخ الاندلس ، مكتبة الحيـاة ، بيروت ، ١٩٨٣ ص ٥٣) . ووجود البطولة فى الواقع يوجدها فى القصة . ففى ملحمة السيد نراه يحب الاستماع الى قصة البطل ابن أبى صفرة ، والسيد نفسه ليس الا محاكاة – فى الواقع لأبطال القص ، ودون كيشوت – حسب سرفانتس – صنع من نفسه صورة من البطل (الفارس المشاء) حسب صورته فى قصص الفروسية البالية . ثم راجع الخرجة شبه العامية المدحية على لسان الهيجا فى السطور التالية مباشرة .

فيصيح الامير الوالى : واطرياه ، وشق ثيابه ، وحلف بالأيمان المغلظة ، ان لا يمشى فى طريق الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله يمشى عليه (١) . انها خرجة تتسم ببساطة وسذاجة مؤثرة مثل لغة الأطفال يعجز عنها الكبار من أمثال الحكيم الفيلسوف الموسيقار ابن باجة ، انها سحرية الجذور الشعبية لهذا النص المعرب .

عموما ، بعد أن ينهى ابن سناء الملك حديثه المتغزل فى الخرجة يصف علاقتها بالبيت السابق لها (البيت الأخير من الموشحة ، والذى سنصطلح من الآن فصاعدا على تسميته صدر الخرجة) فيقول : «والمشروع بل المفروض فى الخرجة أن يجعل الخروج اليها وثبا واستطرادا وقولا مستعارا على بعض السنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران ، ولابد فى البيت قبل الخرجة (صدر الخرجة) من (احتوائه على) : قال أو قلت أو قالت ، أو غنى أو غنيت أو غنت (أو أى فعل فى معنييهما) . وقد (أدخل المتأخرون السنة مغايرة كثيرة) (*) .

فما جعل على لسان الحمام قول عبادة :

الغصن الأخير من صدر الخرجة : (ان الحمام فى أيكها تشدو :

الخرجة : قل هل علم ـ أو هل عهد ـ أو كان ـ كالمعتصم ـ والمعتضد ـ ملكان) ومما جعل على لسان الغرام :

صدر الخرجة :

(أنا وأنتا أسوة هذا الهجر

بالصبر بتا عند انصداع الفجر

ومذ رحلتا غنى الجوى فى صدرى :

الخرجة : سافر حبيبى ـ سحر وما ودعتو ـ يا وحش قلبى ـ فى الليل اذا افتكرتو)

ومما استعير على لسان الهيجا قول عبادة :

الغصن الاخير من صدر الخرجة : (فالهيجا تغنى والسيف قد طرب :

---

(١) المقتطف ص ٢٥٧ .

(*) ما بين قوسين فى هذا النص من اضافة الباحث .

الخرجة : ما أملح العساكر ـ وترتيب الصفوف ـ والأبطال تصيح ـ الواثق يـا مليح) .

ولو ذكرنا مثالا لكل لسان استعاره القوم لطالت الألسنة (*) ، وحصل الملال والكلال . وقد ذكرنا منها ما يجزى ويكفى من المثال (١) .

ويعود من جديد ابن سناء الملك للحديث عن الية تشكيل للخرجة والموشحة والعلاقة بينهما : «وقد تكون الخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا فى العجمى سفساطا نفطيا ، ورماديا زطيا ، والخرجة هى أبزار الموشح وملحه . وسكره ، ومسكه وعنبره ، وهى العاقبة وينبغى أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة ، وان كانت الاخيرة ، وقولى السابقة لأنها التى ينبغى أن يسبق الخاطر اليها ، ويعملها من ينظم الموشح فى الاول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية ، وحين يكون مسيبا مسرحا ، ومتبحبحا منفسحا ، فكيف ما جاءه اللفظ والوزن خفيفا على القلب ، أنيقا عند السمع ، مطبوعا عند النفس ، حلوا عند الذوق تنـاوله وتنوله ، وعامله وعمله ، وبنى عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذنب ونصب عليه الراس .

وفى المتأخرين من يعجز عن الخرجة ، فيستعير خرجة غيره ، وهو أصوب رأيا ممن لا يوفق فى خرجته بأن يعربها ويتعاقل ولا يلحن فيتخافف بل يتثاقل (٢)» .

والآن تكتمل خواص الخرجة المتعددة :

١ – قد تكون فى القليـل معربة ولا سيما فى موشحات المديح ، وقـد كثر اعرابها كتطور للموشحة فى مواجهة تطور الزجل فى عصر المرابطين وآخر فترة ملوك الطوائف ، وفى الكثير عامية عربية أو أعجمية .

٢ – لغة الخرجة ومضمونها لابد أن تكون بالغة الرهافة سواء أكانت هزلا أو جـدا .

٣ – الانتقال من صور الخرجة (البيت الاخير) الى الخرجة يكون وثبـا واستطرادا ، أى أن موضوع الخرجة منفصل – فى الغالب – ظاهريا عن الموشح ويسبق – غالبا – بفعل الغناء أو القول أو ما رادفهما.

(*) لاحظ النكتة فى (لطـالت الالسنة) فهو يورى عن كثرتهـا المفرطة ، وظاهر العبارة ما نقصده منها اليوم : سلاطة اللسان . فى الرجل روح مصرية وثابة مرحة .

(١) دار الطراز ص ٣١ – ٣٢ .

(٢) نفسه ص ٣٢ – ٣٣ .

٤ – الخرجة تحدد ميزان الموشحة وقوافيها .

٥ – هى مشاع بين الوشاحين ، فبوسع أى وشاح الاستعانة بخرجة غيره أو أى نص مناسب كخرجة ، هذا ان لم يستطع أو لم يرد تأليفها ، ويظن أنه فى جميع الأحوال يتأسى ويحاكى نصا آخر غنائيا عند تأليفه للخرجة ان لم تكن مستعارة .

٦ – الخرجة فى الغالب على لسان النسوان (وربما الصبيان الغلمان) . وقد تكون على لسان الوشاح نفسه أو على لسان حيوان ، أو شىء مادى أو معنوى . وتقل هذه الظاهرة فى موشحات المتصوفة خاصة ، والمتأخرين عامة .